تعظيم التوحيدـٌ نفوس الصغائر

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبيًا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبيِّد:

لم كان توحيد الله تعالى أعظم الأمور وأصل الأصول، ومن أجله بعث الله الرُّسل وأنزل الكتب، وفي تحقيقه سعادة الدنيا والزمن والآخرة. لم كان الأمر كذلك عنى بذلك الأُئم والرموز في جميع مراحل حياتهم؛ فعظّموا شأن الله تعالى، وعظموا أسباه وصفاته، وأفردوه بالعبادة سرًا وطريًا، وحذّروا وأنذروا، وتوّعدوا من أشرك بالله فدعوا مع الله إلهًا آخر وقَرَّ بِالله فدعا غير الله وأحمِل شأن الله تعالى.
وليس المقام مقام التفصيل في ذلك... إنها سيكون الكلام في هذا المقام عن تعظيم التوحيد. وشأن الله تعالى في نفوس الصغار والشباب... ذلك لأن هذا الجانب يغفل عنه كثيرٌ من الناس، بل إن بعض من يعنى بشؤون التربية الناشئة يُهمل هذا الأمر أو يُشير إليه إشارةً عابرة، بينما تراه يُؤجل ويُسهِب في شؤون التربية المتعلقة بالسلوك والآداب الاجتماعية، كآداب الطريق، والمسجد، والمنزل، أو ما يتعلق بالحقوق العائلية، كحق الوالدين والقرابة... وهذا كله من الخير، إلا أن إهمال شأن تعظيم الله تعالى في نفوس الصغار والناشئة يُفقدهم كثيرًا مما تعلموه، بل قد لا يكون لما تعلموه أثراً؛ لضعف الوضع العقدي الذي يُغرس في قلوبهم محبة الله تعالى والخوف من سخطه وعقابه.

وَلَا كَانَ الْبَيْتُ مَعْلُومًا وَالقُدْوَةُ لِلْبَنَاتِ كُلِّهِمْ؟
كان يعني بشأن الصغر和完善 على ترتيبهم عند النبي ﷺ.

ومن شواهد تنوع التوحيد في نفوس الصغر:
وصيته ﷺ لأبي عباس رضي الله تعالى عنه، وكان عمر
ابن عباس آنذاك دون البلوغ، وكانت وصيته ﷺ له
وصية عقدية عظيمة تضمّنت في كلماتها ومعانيها أصول
التوحيد والأداب.

فعن أبي العباس عبد الله بن عباس ﷺ قال: كنت
خلف النبي ﷺ يومًا فقال: يا عُلَّام، إنّي أعلمك
كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تحده تجاهمك، إذا
سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن
الأمة لا اجتمعت على أن يفعلوك بشيء لم يفعلوك إلا
بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك
بتُصِّبِّيُّهم كما لَمْ يوضَروك إلاَّ بشيء قد كتبه الله عليك، رُفِعت الأقلام وَجفت الصحف" (١).

وفي رواية: "... احفظ الله تحديك، احترف إلى الله في الرَّحَم يعفك في الشدَّة، وأعلم أنَّ ما أخطأت لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليصيبك، وأعلم أنَّ النصر مع الصبر، وأن الفرح مع الكرب، وأن مع العصرِ يُسرًا."

والأمر في بعض جمل هذا الحديث - ناهيك عن جميعها - يرى أنها تضمّن الخير نصًا ولزومًا وتضمُّنًا، ففيها الوصاية بحفظ أمر الله امتثالًا، ونهيه اجتنابًا، وأن من حفظ ذلك حفظة الله، ومن حفظ الله لعبده هدايته ودلالته إلى ما فيه خير في دينه ودنياه وآخرته.

(١) رواه الترمذي (٢٥١٦)، وقال: "حديث حسن صحيح".
ثمَّ أوصاه بسؤال الله واستعانه به في تحقيق مطالبه
وقضاء حوائجه، ثمَّ رسَّخ في نفسه أنَّ المقادير بيد الله تعالى؛ فلن يصيبك نفعٌ أو ضرٍ إلّا ما كتب لك أو عليك، وممّا اجتمع الخلق وأرادوا أمرًا - لك أو عليك - فلن يكون إلّا ما كتب لك.

وفيّا أيضًا: أنَّ مّن لزم طاعة الله تعالى في حال الرّحاء. فلن يخذه الله في حالتّ الشدة، ثمّ يبيّن له أنَّ مّن صبر نصر، وأنّ الكرب يعطفه فرج، وأنّ الأمور عند تعصرها تبصّر بإذن الله تعالى.

ومن عناية بشأن التوحيد مع الصغر: ما أخرجه الترمذي عن أبي رافع قال: «رأيت رسول الله ﷺ أدن في أذن الحسن بن علي حين ولدته فاطمة»)۱(.

۱( «الجامع» (۱۵۱۴). وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.
قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: "وسر التأذين أن يكون أول ما يقرع سمع الإنسان كلياته المتضمنة لكيهاء الرَّبّ وعظمته، والشهادة التي أول ما يدخل بها في الإسلام، فكان ذلك كالتلقيح له شعار الإسلام عند دخوله إلى الدنيا كا يلقن كلمة التوحيد عند خروجه منها" (1).

ومن تَعَذِّبُ النَّبِيّ للتوحيد في نَفْوس الصَّغَارِ:
ما ورد أن النَّبِيّ عَلَمَ الحسن بن علي ﷺ أن يقول إذا فرغ من قراءته في الؤره: "اللهِ الَّذين هَديَ فيهم هديت، وعفا فيهم عافيته، وتولّى فيهم توليت، وبارك لَيها أعطيت، وقني شر ما قضبت، فإنك نقضتي، ولا بقية عليك، إنه لا يذل من والبت ولا يعزّ من عادت، باركت ربنا وتعالّيت، لا منجا منك إلا إليك" (2).

(1) تَعَذِّبُ النَّبِيّ في أحكام الولد (ص 22).
(2) أخرج أبو داود (1435) والترمذي (464) وحسب.
وإذا كان مولد الحسن بن علي في السنة الثالثة من الهجرة، فتكون عمره عند موت النبي ﷺ سبع سنين، ومع صغر سنّه في حياة النبي ﷺ فقد لقبه وعلّمه النبي ﷺ تلك الكلمات العبادية في تعظيم شأن الله، وأنه المستحق للعبادة، وهو المدعو دون سواه، وأنه لا يجلب النفع إلا الله، ولا يدفع الضر إلا الله، وأن قضاء الله نافذ، وأن الغز لن والاه، والذل لمن عاده، وأن الافتبار إليه... إلى غير ذلك من عظيم المعاني.

* ومن تعظيم التوحيد في نفوس الصغير أيضًا: ما أخرجه البخاري في صحيحه عن ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ كان يُعوذ الحسن والحسين ويقول: إن أبيكما كان يُعوذ بهما إسحاق وإسحاق: أعوذ بكلمات الله النافعة من كل شيطان وهمامة، ومن كل عين لاتَّفَكَّرُ.
ومن فوائد الحديث العقيدة: تعليم الصغراء أخبار الأنباء، ورزع محبتهم في القلوب، وكذلك تعظيم شأن اللجوء إلى الله تعالى، وأنه هو الحافظ من كل سوء، وبيان شر الشيطان وضرر الهمة والعين.

ومن عظيم عناية النبي بشأن التوحيد في نفس الصغر: تبنيه وإنكاره منّا زل الصغير في مقام التوحيد خاصة وفي غيره عامًا.

ومن شواهد ذلك: ما روى الربيع بنت معاذ بن عمرو: عفراء قالت: جاء النبي في فدخل حين بني علي، فجلس على فراش في مجلس من منزله، فجعلت جُويِّرات لنا يضرين بالذى، ويندب من قُتل من أبائي يوم بدر، إذ قالت إحداهمنا: وفينا نبي يعلم ما في غد. فقال: «دعى هذا! وقولي بالذي كنت تقولين» (1).

(1) أخرجه البخاري (4852).
وإذا كان النبي ﷺ حريصًا على الصغار في شأن
غرس تعاليم التوحيد في نفوسهم لتكون نبراسًا لهم في
حياتهم، فكيف يقال فيمن أهل أمر التوحيد أو قلّل من
شأنه أو استبدل تعليم الصغار التوحيد بتعليمهم أمورًا
مفضلة؟!

فعلي من تولى تربية الناشئة أن يرسّخ مبدأ تعظيم
الصغير لربّه عليه الصلاة والسلام، وبيان سعة رحمته لمّا أطاعه، وشدة
عقابه لمّا عصى، وليعظم مرتبة الإحسان في نفوسهم، وأنّ
الله تعالى يزّارهم ويعلم سرّهم ونجواهم، وأنه تعالى لا
تُغنى عليه خافية...

فإن الصغير إذا رسم في نفسه تعظيم توحيد الله تعالى
صلح أمره وقوي عزمه في محجة فعل الخيرات والرزّابة فيها،
وفي المقابل قوي عزمه في البعد عن الخطيئات والرُّهبة
منها، وكما تقدمت سنته كلما قوي تدبيره واستقام أمره.
لا يوجد نص يمكن قراءته بشكل طبيعي من الصورة المقدمة.

يرجى تقديم النص باللغة العربية بشكل واضح ومشرق للقراءة.
جزاؤهم إساءةً، ويفسرون أشعار بعض النصوص الشرعية التي فيها الدلالة على ذلك، وكلما كرر تلك النصوص عليهم بأسلوب تجميع بين الرحم والتعليم كلما كان ذلك أدعى لتثبيتهم، بل ولرسوخ تلك النصوص في نفوسهم وتذكيرهم لما حالما يريدون فعل ما توها عنه أو ترك ما أمروا به.

ومن تلك النصوص على سبيل المثال:

«إنهُ قد أصبِح في البصر» {الإسراء: 1}.

«فإنّهُ يعمل الزيروة أخفى» {تثنى: 7}.

«هل جَرَّاهُ إلَّا أَلِيمَانُ إلَّا أَلِيمَانُ» {الرحم: 60}.

«أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العقاب وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» {البقرة: 8}.

ومما ينبغي التنبه عليه في هذا المقام خطأ ترجوي شائع
تعظيم التوحيد في نفوس الصّغار

عند بعض الآباء والأمهات والمعلمين؛ ذلك الأمر يتعلّق بخوف الصّغار عند خطتهم بأشياء وهمية، كمجيء وحش إليه، أو سقوط شعره، أو انقلابه إلى حيوان... وما شاكل ذلك مما لا يُرسّخ خيرًا في نفسه، بل قد يزيده استمرارًا على خطته إذا لم ير مصداق ما قبل له.

ولو أن أولئك الآباء والأمهات والمربيين ربطوا أولئك الصّغار برّهم وثوابه وعاقبه لكان خيرًا لهم ولأولادهم وأقوم وأهدي سبيلا.

ومن طرق غرس التوحيد: تعظيم شأن الله تعالى في قلوبهم، وأنه تعالى هو المستحقّ للعبادة، لا معبد بحق سواء، وترسيخ هذا المعتقد في نفوسهم، وفي المقابل بيان الوجه المخالف المناقض وإيضاح بطلانه وضلاله، كمن يدعو غير الله، وكضلال السّحرة والكاهنة، وأنهم كاذبون دجالون صُلّال منحرفون.
وهذا الأمر - أعني تذكير الصغار من ضلال السحر والسحرة - ينبغي عدم إهماله أو التساهل فيه، وبخاصة في هذا الوقت الذي أصبحت بعض القنوات تدعو إليه، بل تفرَّغت قنوات للترويج له واستقبال الرسائل والإجابة عليها من لدن أولئك السحرة والفجرا.

ومع كله ذلك؛ فلا بدّ من إجراء وتكرار بعض النصوص الشرعية التي تؤكد ما يقرّه الكبار للصغار؛ ذلك لأنّ تكرار النصوص على مسامع الصغير يزيدها رسوخًا في ذهن، فيزداد قناعة بها يلقين، ففي مقام تحذيرهم من شر السحر وبيان ضلال أهله يسوق لهم من النصوص من باب المثال:

ولا يبلغ مالك الجحثين ألاًّ (طه: ٦٩).
ولا يبلغ مالك الجحثين (يونس: ٧٧).
قال موسى: ما عجبت لي الساحر إن الله سيبطيله، إن الله لا يضحي عمل المفسدين {يونس: 81}.

ومن السنة قوله: «من أتي ساحرًا أو عراة لم تقبل له صلاة أربعين يومًا». وفي لفظه: «فصدقه بها يقول فقد كفر بها أنزل عليه محمد.»

ثم بينهم أن هذا فيمن جاء إلى الساحر، كيف بالساحر؟

ومن طرق تعظيم التوحيد في نفوس الصغار: البيان لهم والتوضيح بافتقار الخلائق إلى رحمة الله تعالى، وأنهم جميعا يحتاجون إليه فقراء أدلا إليه، وهو الغني الحميد، ويمثل لهم بتوجه المصلين إلى الجماعة والسجادة للصلاة والدعاء، وكذا بينهم فهم كثرة الحجج ووقفهم في المشاعر ودعاءهم لله تعالى، وأن الله تعالى يسمعهم ويراهم.
{لا يمكنني قراءة النص العربي بشكل طبيعي.}
وَيَنْشَأُ نَاشِئُ الفَتْيَانِ فِيَّا عَلَى مَا كَانُ عَرَّدَهُ أبُوَّهُ وَكَيْبَبِ اللَّهُ إِلَى الصَّغَّارِ مِنْ أَيْسِرَ الأُمُورِ وَأَسْهَلَهَا، وَيُكْونُ ذَلِكَ بِرِبْطِ النَّعْمَ مَعِنًّى ذَكْرَهَا لِلصَّغَّارِ بِمِنْ أَنْعَمَهَا، وَهُوَ اللَّهُ. فَإِذَا لَبِسَ الصَّغَّارُ جَنِّدًا وَفَرَحَ بِذَكْرَهُ أَهْلَهُ بِحَمْدِ اللَّهِ وَلَفَّنَّ ذَلِكَ، وَإِذَا أكْلَ أَوْ شَربَ عُلُقُ البَسِمَةِ فِي الْبَدْءِ وَالْحَمَّدَةِ عَنْدَ الْإِنْتِهَا، وَأَخْرِجَ أَنَّهُ لَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ لَمْ كَانَ ذَلِكَ النَّعْمَ وَالشَّرَابِ، وَهَذَى يَسْلُكُ مِعَ الصَّغَّارِ عَنْدَ حُدُورِ النَّعْمِ وَتَجْزِيْهُ، فَيِنْطَرُهُمْ غَضَبًا طَرِيْقَةً تَتْلِقَحُ بِهَا يَ بَدُّ عَلَيْهَا عَرْضًا فَكِيْفَ بِهَا يَتَكَرُّرُ عَلَيْهَا دَوَامًا؟

وَمِنْ طَرِقِ عَتْقَمُ التَّوْحِيْدِ وَبِحَبِّ اللَّهِ تَعَالَى فِي نَفْوُهُ الصَّغَّارِ: العَنَايَةُ بِإِبْسَاعِهِمْ لِبَعْضِ سُورَ الْقُرْآنِ وَتَشِيِّرُهَا بِأَسْهَلِ أَسْلَوبٍ، وَكَذَٰلِكَ بِبَعْضِ النَّصْوَصِ النَّبِيَّةِ مَعَ إِيْضَاحٍ مَا قَدْ يُشْكِلُ فَهْمَهُ عَلَيْهِمْ، وَمَا يَنْبِغْيِ العَنَايَةُ بِهِ أَيْضًا أَنْ يَبْكُرُ عَلَيْهِمْ بَعْضُ الْأَذْكَارِ الصَّبَاحِيَةِ وَالْمَسَائِيَةِ وَالْمَنَامَيَةِ.
كي يحفظوها ويتعلموها، مع تشجيعهم وتحفيزهم على هذا؛ ذلك لأن الصغير إذا أرتبط بالأذكار تصلح حالتهم وتذهب أخلاقهم، ويكون ذكر الله تعالى ملازمًا له. وإن ما لا بد من ذكره في هذا المقام أن بعض الآباء والأمهات والمربيين يغفلون في إشغال الصغار بالأناشيد ويكثر من ذلك، فتجد أن الصغير يحفظ بهناءات من الأشرطة وأسماوات مشتديها ويتابع جديدها يعزف عن قديمها! وهذا الأمر على إطلاقه مما يضر الصغر ولا ينفعهم، فلا بد من ضبطه ومراعاته.

فليس في نفوس الصغار حفظ بعض السور والأدعية، وبخاصة تلك الأدعية التي أصلحت العلماء على تسميتها بعمل اليوم والليلة، كأذكار الصباح والمساء، والليل، ودخول المنزل والحج منه، ودخول مكان الخلاء والحج منه، وأذكار الطعام والشراب، وغير ذلك...
وأنا الأناشيد فلا مانع من ساعها، ولكن ينبغي عدم ترك الصغير يوغل في ساعها حتى أصبح بعضهم لا يستطيع أن ينفك عنها. بل إن بعض الشباب من أكثر من ساعها أصبح يشتكى من تفلت حفظه، فضلًا عن قلة رغبته في ساع القرآن.

وقد نبى إلى هذا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى وقرر هذا الأمر، فقال بعد كلام له: "وهذا ندب من أكثر من ساع القصائد لطلب صلاح قلبه تتقص رغبته في ساع القرآن، حتى ربا يكرهه" انتهى كلامه بقوله (1).

إذا كان هذا حال من أكثر من ساع القصائد، فكيف بساعتها من باب المثلذ بألحانها وأصواتها! وهذا حال أغلب الصغار.

(1) "القضايا المتميزة المستقيمة" (ص 217)
ويكل حال;فعل من يتولى تربية الصغار أن يُعني بها يسمعون ويطوِّرون، وفيما يتعلق بالآناشيد عليه أن يصرفهم عن تلك الآناشيد التي فيها تكلف في الأخوان والتلوُّمات التي تشبه طريقة التصوُّفة في أشعارهم وقصائدهم.

الله‌هم اجعلنا ممن يذرك كثيرًا ويسألُ المزيد من فضلك فتعطينا أكثر مما نريد...

الله‌هم هب لنا من أزواجهما وذرِّياتنا قُرة أعين...

الله‌هم ارزِقنا برُّ والديناء، وارزِقنا برُّ أبنائنا بناء.

الله‌هم حُبِّ إلينا وإليهم الإيان، وزينَه في قلوبنا وقلوبهم; وكرّه إلينا وإليهم الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا جمِيعًا من الرُّعاشدين.